الفاضل فاضل ولو عبداً اسود

رأى العلماء والفضلاء منذ قرون كثيرة ان الناس كلهم من نوع واحد ولو اختلفت ألوانهم وتنوّعت اشكالهم. وحسبوا البعض نوع الوهم القديم الراسخ في النفوس وهو ان السود ليسوا من جبلة البيض وحرّموا استعبادهم واشتروا بتعليمهم وتهذيبهم فتعلم بعضهم وتهذّب وقد شاهدنا منهم الخطباء والوعّاظ ورأينا البيض يصغون اليهم غير ملتفتين الى سواد بشرتهم. لكنّ هذا الاهتمام لم يرقِ السود جملةً كما رقّى افرادًا منهم فلا يزال جمهورهم دون البيض بمراحل كثيرة حتى في البلاد التي اطلقت لهم الحرية التامة وساوت بينهم وبين البيض في الحقوق. ولن يرتقوا الاّ اذا سعوا هم في سبيل الارتقاء فان السعي نفسهُ يقوّي الهمم ويشحذ الاذهان ويهذب الاخلاق واما الاعتماد على الغير فلا ينتج عنهُ غير ضعف العزيمة وانحطاط النفس

والظاهر ان السود القاطنين في اميركا الشمالية ادرك بعضهم هذه الحقيقة وهم يسعون الآن في ما يرفع شأنهم وقد استتبّ لواحد منهم اسمهُ بوكر وشنتون ان انشأ مدرسة كبيرة للعلوم والصنائع يتعلم فيها الآن الف تلميذ من السود وكل اساتذتها منهم وهو رئيس لها. ولد عبدًا قبل نشوب حرب الحرية في اميركا وسئل عن تاريخ ميلادهِ فقال لا اعلم ولكنني اتذكر ان المرحومة والدتي كانت تحميني فوق الخرق التي كانت تلفني بها وتضرع الى الله لكي ينعم الرئيس لنكلن حتى تتحرّر. وقال ايضًا انهُ كان مرّةً في الغيط مع سائر العبيد فقيل لهم ان يأتوا الى البيت فاتوا واجتمع خلق كثير منهم رجالاً ونساء واولادًا ووقف واحد في شرفة وقرأ ورقة ثم صرخوا جميعهم قائلين الحمد لله الحمد لله. قال وكنت صغيرًا جدًّا فلم افهم ما قرىء ولكن امي انحنت اليَّ وقالت لي انني قد حرّرونا

ولما ترعرع مضى الى مناجم الفحم الحجري مع اخوتهِ وكان يعمل معهم ثم رأى واحدًا من رفاقهِ يقرأ في جريدة وقد اجتمع حولهُ جمهور من السود يصغون اليهِ فاعجب بهِ وتحسر على من يعلمهُ القراءة مثلهُ

ودخل في خدمة امرأة فاضلة ورأت رغبتهُ في تعلم القراءة فجعلت تعلمهُ في دقائق الفراغ من الخدمة. وسمع يومًا ان الجنرال أرمسترنغ انشأ مدرسة في مدينة اسمها همتون يتعلم فيها اولاد السود ويعملون فيكتسبون ما يقوم بنفقات تعليمهم. قال ولما سمعت ذلك عزمت على الذهاب الى هذه المدرسة ولم يكن معي شيء من النقود ولا كنت اعرف الطريق اليها

فقمت من ساعتي وجعلت استدل على الطريق واستعطي او اعمل لكي اكتسب ما اسدّ به الرمق فاذا اكتسبت فوق ذلك دفعت اجرة سكة الحديد والاّ مشيت ماشياً وبلغت مدينة رتشمند ليلاً ولم يكن معي شيء من النقود ورأيت الواحاً موضوعة في شارع وتحتها حفرة فانتظرت حتى انقطعت رجل السابلة من ذلك المكان ودخلتُ تحت الالواح وغت تلك الليلة والحمد لله وجدت عملاً في اليوم التالي في تفريغ شحن سفينة ودام هذا العمل عدة ايام وكنت آتي كل ليلة وانام تحت تلك الالواح فوفرت من اجرتي ما دفعت منهُ اجرة سفري الى همتن وبقي معي نصف ريال "

ولما وصل الى المدرسة ورأى اساتذتها حالتهُ الرثة اعطوهُ مكنسة وبعثوهُ الى غرفة وامروهُ ان يكنسها فكنسها اربع مرات متوالية ولما رأوا منهُ ذلك قبلوهُ في مدرستهم . قال وهذا كان الامتحان العملي الذي امتحنوني به فدخلت المدرسة ورأيت فيها وفي مدينة همتن من اسباب التعليم والتهذيب ووسائل النجاح والفلاح ما ايقظ كل قوى نفسي وجعلني اشعر باني مولود لاكون انساناً لا لاكون من بعض المقتنيات وعزمتُ ان امضي الى الولايات الجنوبية التي يقيم فيها السود حالما اتمّ دروسي وابذل جهدي في انشاء شيء للقومي يستفيدون منهُ كما استفدتُ انا من مدرسة همتن . ولما اتيح لي ذلك مضيت الى بلد تسكجي في ولاية الاباما وجمعت ثلاثين ولداً كنت اعلمهم في كوخ صغير ولم يكن لهذه المدرسة ما قيمتهُ ريال واحد من العقار بكن الرغبة في السعي والسعي في اكتساب حوّلاني انشاء مدرسة كبيرة للعلوم والصنائع فيها الآن ثمان وثلاثون داراً والف تلميذ

وكثيراً ما يسألني البعض عن الغرض من جمع المال لهذه المدرسة فاجيب ان في الولايات الجنوبية الاميركية عشرة ملايين من السود ابناء جنسي وهم يحتاجون الى المأكل والمشرب والمأوى ويحتاجون ايضاً الى التعليم والتهذيب والى تربية الاخلاق التي تتحلّى بها الشعوب المرتقية ولا يسهل الوصول الى هؤلاء الملايين الاّ بان نرسل اليهم اناساً من نجبة الرجال والنساء المتعلمين المتهذبين الذين تدرّبت عقولهم على الشغل وايديهم على العمل وقلوبهم على الشفقة فيكونوا بينهم ويعلموهم ويهذبوهم . والغرض من المدرسة التي انشأتها انما هو اعداد هؤلاء الرجال والنساء لهذا العمل العظيم

قال المستر ترشر الذي نقلنا عنهُ هذه الحقائق لما اتيت تسكجي اول مرة مررت في ولاية جيورجيا وكان معي في القطار رجل يستدلّ من كلامهِ على انهُ كان قائداً في جيش الولايات المتحدة وقت حرب الحريّة فسألني عن الجهة التي انا ذاهب اليها فقلت لهُ اني ذاهب الى تسكجي

لاحضر مؤتمر للسود فقال " ظننت لقابلي بوكر وشنطون هناك . لقد اهتدى هذا الرجل الى السبيل الذي يفيد بهِ بناء جمعيتهِ فانهُ يعلّم السود العمل وبهِ جعل الوكان في اولايات الجنوبية الف رجل مثلهُ " ثم علمت بعد ذلك ان الرجل الذي كان يكلمني من اكبر اصحاب الثروة في تلك البلاد

وفي اليوم التالي بعد المؤتمر قابلني رجل من السود وقال لي ألستَ انت فلانًا اوَ لم تكن في معرض شيكاغو فقلت نعم ومن انت فقال ألا تذكرني رأيتني في المعرض اعمل في المكان الفلاني فقلت نعم اني اتذكرك الآن وما اتى بك الى هنا فقال ذهبت في السنة التالية الى معرض تنلتا وسمعت المستر وشنتون هناك يتكلم عن مدرستهِ التي يتعلّم فيها اولاد السود

المستر بوكر وشنطون وزوجتهُ

الصنائع وانا في صناعتي نجار ولكنني لا اعرف حرفة النجارة فاتيت الى هنا لكي اتعلمها وقد كدت انتهي الآن وحتى لتنتهي سهل عليَّ الكسب

قال المكاتب ولما اردت العودة من تسكجي دخلت مركبة البريد لافتح كتابًا فيها وكان على غلافهِ اسم مدرسة تسكجي فلما رآهُ كاتب البريد قال لي " ان بوكر وشنطون رئيس هذه المدرسة رجل عجيب فاني لم ارهُ قط ولكني اعلم انهُ يُعلّم الناس العمل " وكنت كيفما التفتُّ ارى الشهادات تكرّر على نفع العمل الذي قام بهِ هذا الرجل . واي عمل انفع من ان تعلّم الرجال والنساء مبادئ العلوم والفنون وتجعلهم يقرنون العلم بالعمل ولا تضطرهم الى دفع درهم بل تكسبهم من عملهم ما يقوم بنفقاتهم ونفقات تعليمهم

قلنا ان في مدرسة تسكجي ثمانيَ وثلاثين دارٌ. الثلاث الاولى منها وهي اصغرها بُنيت قبلما دخلها التلامذة والخمس والثلاثون الباقية بناها التلامذة انفسهم فهم كانوا يصنعون الاجرَّ (الطوب المشوي) ويشونهُ بارشاد معلمين ماهرين في هذه الصناعة ولم يكتفوا بعمل الاجر اللازم لهذه المباني بل عملوا كثيرًا منهُ وباعوهُ للغير. وقد وصف المستر وشنطون هذا كيفية اقدامهِ على ترن العلم بالعمل في محفل حافل قال

" بعد ان مضى عليَّ مدة في تسكجي رأيتُ كانَّ تعبي ضائع سدًى لانني كنتُ اقتصر على تعليم الطلبة ما في الكتب من غير ان اعلمهم كيف يعتنون بانفسهم وبمن لهم. ثم وقعت عيني على ارض قرب تسكجي وددت ان اشتريها ولم يكن معي ثمنها فترضيتُ واحد مئة ريال اشتريتها بها ونقلت المدرسة اليها وكنت اعلّم التلامذة جانبًا من النهار واخرج معهم في الجانب الآخر منهُ نقطع الاشجار من تلك الارض وعهدها ولما عملنا الاجر لم اكن اعلم كيف يُشوى ولم يكن معي ما ادفعهُ اجرة لصانع ماهر في شيهِ فأخذت ساعتي ورهنتها على نقود استأجرت بها الصانع فعلمنا كيفية شيهِ ولم استفكَّ هذه الساعة حتى الآن مع اننا بنينا ثمانية وثلاثين بناء كبيرًا مما تعلمناهُ منها "

والتلامذة في هذه المدرسة او المدارس يتعلمون عمل الاجر والبناء والنجارة على اختلاف فروعها. وفيها الآن معامل كبيرة مجهزة بكل ما يلزم لها من الآلات والادوات واكثر ما فيها من مكاتب وكراسي واسرَّة صنعهُ التلامذة انفسهم في هذه المعامل وصنعوا ايضًا مركبات النقل على انواعها. والبناء دائم هناك حتى يكون للتلامذة عمل يعملونهُ وقد بنوا كنيسة كبيرة في العام الماضي تسع الف نفس رسمها واحد من الاساتذة وهو مدرّس المباني المتدسية ورسم اطنافها واحد من التلامذة ومقاعدها تلميذ آخر. والتلامذة هم الذين وضعوا الحديد على سقفها ووضعوا فيها آلة بخارية لتدفئتها وآلة كهربائية لانارتها

ويتعلم التلامذة تصليح الآلات على انواعها ولا سيما الآلات الزراعية وفي المدرسة معمل كبير لذلك وهم يصلحون فيهِ آلات كثيرة لاهالي البلاد المجاورة. ويتعلمون ايضًا الحدادة والطباعة والخياطة والتصوير. ويتعلم البنات الاعمال الخاصَّة بالنساء كالطبخ والغسل والخياطة وعمل البرانيط ويتعلم بعضهنَّ تمريض المرضى. ومن اهم ما يتعلمهُ التلامذة ويمارسونهُ علم الفلاحة وكل الاساليب العلمية الحديثة الآن حيث صارت الزراعة على ارقاها. واساتذتهم من امهر الاساتذة في هذا الفن وعندهم كثير من البقر الحلوبة وهم يستخرجون الزبدة من لبنها ويصنعون منهُ الجبن

ذكر المستر وشنطون حادثة جرت لاحد تلامذته قال اعلن اصحاب معمل من معامل

الزبدة انهم يحتاجون الى مدير لعملهم وكان في مدرستنا شاب اتقن استخراج الزبدة واتمّ دروسهُ في المدرسة فمضى الى هذا العمل وعرض نفسهُ على اصحابهِ فلما نظروا اليهِ قالوا انهُ لا يمكننا ان نستخدم رجلاً اسود فقال لهم انني لم آتكم لتستخدموا لوني بل معارفي فجربوني واحكموا. فنظروا في الامر قليلاً ثم قالوا انهُ يبقى عندنا اسبوعين ولكن يجب ان تعلم من الآن اننا لا نريد ان نستخدم رجلاً اسود. فاقام عندهم الاسبوع الاول ولما عُرضت زبدتهم في السوق دُفع في الرطل منها ثمن يزيد نصف غرش على ما كان يُدفع عادة فاستغربوا ذلك وقالوا لعلّ ما يكون في الاسبوع الثاني فلما عرضوا زبدتهُ لتبيع دُفع في الرطل منها ربع غرش زيادة عمّا دُفع في زبدة الاسبوع الاول فسروا بهذا الربح واقروا الرجل في منصبهِ ولو كان اسود فاحماً

والمؤتمر المشار اليهِ آنفاً أنشئ في تسكجي منذ عشر سنوات انشأهُ المستر وشنطون للسود لكي يتذاكروا فيهِ بما يعود عليهم بالنفع وحضرهُ اوّل سنة نحو عشرين رجلاً لكنهم رأوا من فائدتهِ ما ضاعف رغبتهم فيهِ فصار عدد الحضور الآن الفين رجالاً ونساء وهم ليسوا من العلماء ولا كلهم من الذين يعرفون القراءة والكتابة لأن اكثرهم كانوا عبيداً وقت الحرب الحربية حتى ان واحداً منهم وقف مرةً وقال ان ذلك اليوم (يوم اجتماع المؤتمر) هو اليوم الوحيد الذي دخل فيهِ المدرسة

اما المواضيع التي يبحثون فيها فممّا يتعلّق بهم خاصةً ويتوقف عليهِ نجاحهم او فشلهم مثل الاقتصار على زرع القطن ورهن الغلة قبل جنيها والاكتفاء باستئجار الاطيان وقلة الاهتمام بابتياعها وما في ذلك كلهِ من الخسارة عليهم ومثل الضرر الناتج عن الاسراف والزينة الباطلة وابتياع ما ليس بهم حاجة اليهِ ونحو ذلك من المواضيع. ويرئس المستر وشنطون اجتماعاتهم ويديرها بحكمة ومهارة حتى لا تضيع دقيقة من الوقت سدًى ولا يبقى هذا المؤتمر الا يوماً واحداً

قال الكاتب وقد رأيت في احد هذه الاجتماعات امرًا يستحق ان يكتب بالابر في صفحات الايام رأيت امرأة خلاسيةً وقفت في الجمع واستأذنت في الكلام وقالت "اخبرنا الاخ وشنطون في العام الماضي ان الانسان الواحد يستطيع ان يقوت عائلة من ثلاثة افدنة من الارض وشرح لنا كيفية ذلك وقال انهُ ميسور للمرأة كما هو ميسور للرجل فعزمت ان امتحن قولهُ واستأجرت ثلاثة افدنة واستأجرت ايضاً من حرثها لي ووقفت على يدهِ حتى رأيت الارض حُرثت حرثاً عميقاً جداً كما يجب ان تحرث وعمدتها وزرعتها". ثم وصفت طريقة الاعتناء بزرعها وذكرت النفقات التي انفقتها ومقدار الغلة التي استغلتها منها وقالت "ان الغلة كفتني وكفت عائلتي سنة كما قال فثبت قولهُ بالامتحان". فصفق لها الحضور طويلاً وهي واقفة لا تبدي

علامةً من علامات الشكر ثم رفعت يدها واشارت بتنة ويسرة فصفقوا كلهم فقالت " اني لاعجب منكم كيف تضيعون دقيقة من هذا اليوم الوحيد في امر لا طائل تحته وانتم تعلمون ان شعباً كبيراً على شفا جرف هار "

ومثل ذلك تقتضي هذه المؤتمرات ويرجح الحضور وقد استفادوا منها فوائد جمة . ويرى القارئ لاول وهلة ان ليس غرضنا من كتابة هذه السطور مدح رجل من زنوج اميركا بل ذكر مثال من الامثلة العديدة التي يبين منها ما يستطيعهُ المرء اذا كان من رجال الهمة والاقدام ولو كان صفر اليدين . والاستدلال على ان رجلاً واحداً قد يأخذ على نفسهِ ترقية امة كبيرة فيفلح في غرضهِ اذا كان من ابناء تلك الامة اكثر مما يفلح مئات مثلهِ اذا لم يكونوا منها. فان الوفاً من الاميركيين البيض بذلوا اقصى الجهد في تعليم سكانها السود وتهذيبهم فلم يفلحوا عشر ما افلح هذا الرجل . وامثال ذلك كثيرة في الهند واليابان وكل البلدان التي سعى فضلاء الاوربيين والاميركيين في نشر العلوم والفنون فيها فانهم حيث استطاعوا ان ينهضوا هم الوطنيين ليصلحوا شؤونهم بانفسهم كان فوزهم عظيماً وحيث بقي الوطنيون يعتمدون عليهم لم ينتج عن سعيهم غير فوائد قليلة محصورة في بعض الذين تعلموا منهم . ولا يفيد الامم الا سعي ابنائها كما لا يفيد المرء الا سعيهُ لنفسهِ " ومن كان اسعى كان بالمجد اجدرا "

التلغراف الاثيري

يعلم القرّاء الكرام ان ارسال الاشارات التلغرافية من مكان الى آخر ليس بينهما اسلاك معدنية صار الآن ممكناً وكثر استعمالهُ اذا كانت المسافة بين المكانين ثلاثين ميلاً او اربعين بل قد صار ممكناً ولو كانت المسافة مئة ميل . وقد ذكرنا تاريخ هذا الاستنباط البديع وتدرّجهُ في مراقي الكمال من باب خبري ومرادنا الآن ان نشرحهُ شرحاً عملياً بسيطاً مبينين الحقائق التي بُني عليها

ومن الغريب اننا وقفنا ساعة زمانية نبحث عن كلمة عربيةٍ او معرّبة نجعلها عنواناً لهذه المقالة فان المعاني التي نريد التعبير عنها مرسومة كلها امامنا ولكننا لم نجد اسماً متصرفاً نسمي بهِ هذا الاسلوب الجديد من التلغراف . وقد سمّاهُ في ما مضى تلغرافاً من غير سلك وتلغراف مركوني والتلغراف الاثيري حسبما سمّاهُ الافرنج ولكن هذه الاسماء الثلاثة لا يسهل تصريفها